

مع كتاب أسواق العرب في الجاهلية والإسلام

محمود فاخوري

-1-

كان من عادة العرب في العصر الجاهلي أن يقيموا لأنفسهم أسواقاً موسمية عامة في أماكن معينة وأزمنة محددة -إلى جانب أسواقهم المحلية الدائمة- يتعاطون فيها أمور البيع والشراء والتجارة وفداء الأسرى، والتباهي بالأعمال العظيمة والمفاخر الجبلية والمآثر الحميدة، والاستعداد للأخذ بالثأر في قابل الأيام -كما سنرى-. وأصبح الكثير من هذه الأسواق -ولا سيما الكبرى منها- موسماً سنوياً لاجتماع القبائل أيضاً وعقد المجالس للمناشدة والخطابة والتحكيم الأدبي والفصل بين الشعراء. ولم تكن هذه الأسواق الموسمية السنوية كلها في وقت واحد، ولذلك كان يتاح للعرب -أفراداً وجماعات- أن ينتقلوا من سوق إلى أخرى، قريبة أو بعيدة قليلاً.

وهذه الأسواق تختلف من حيث الشهرة والذيع، ومن حيث عدد الناس الذين يقدون إليها، ومنزلتهم الاجتماعية والسياسية والقبلية، وقد درج العرب على أن تكون الأشهر التي تقام فيها تلك الأسواق هي من الأشهر الحرم، ومن ثم كانت أماكنها من الأماكن الحرم أيضاً، فلا يجوز فيها العدوان ولا الغزو، ولا القتال، ولا الأخذ بالثأر.

والأشهر الحرم عندهم أربعة هي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب الفرد، وسمي بذلك لانفراده عن الأشهر الثلاثة المتتابعة، ويقال له أيضاً "رجب الأصم" لأنه كان لا يُسمع فيه صوت مستغيث، ولا حركة قتال، ولا قعقة سلاح، شأن الأشهر الحرم الأخرى.

وكان لهذه الأسواق أغراض شتى لم تكن لتتحقق لولا وجود تلك الأسواق الموسمية، وفي مقدمة تلك الأغراض قضاء مناسك الحج في الفترة نفسها، والتوفيق بينها وبين الحضور إلى

* باحث من سورية، عضو اتحاد الكتاب العرب.

الأسواق المقصودة لشراء ما يحتاجون إليه، أو لبيع ما عندهم من بضائع وسلع وأدوات وسلاح، وإن أسواقنا الأسبوعية اليوم صورة مصغرة جداً عن تلك الأسواق العربية القديمة من حيث البيع والشراء والتجارة، ما خلا الجانب الأدبي والشعري الذي كان يتحقق "على هامش" أسواق العرب- كما نقول اليوم، وهو ما لا وجود له في أسواقنا المعاصرة.

ولم تكن الأسواق الموسمية بدعا في تاريخ العرب، بل كانت معروفة عند اليونان والرومان وفي أوروبة عامة إبان القرون الوسطى، مع بعض الفروق بينها وبين الأسواق العربية القديمة، ثم تقلصت تلك الأسواق جميعاً بل زالت بعد انتشار وسائل النقل، وتطور تسويق البضائع، وشيوع ظاهرة المعارض المختلفة في هذا العصر، بحسب ما يُعرض فيها، كالآلات الزراعية، والأجهزة الطبية، والمنتجات المتنوعة، وما إليها مما نعهده اليوم في معرض دمشق الدولي، وسوق الإنتاج في حلب، حتى الكتب أصبحت لها معارض وأسواق خاصة في الأقطار العربية تعقد في شهر معين من كل عام، وتدوم أياماً معدودات، أو أسابيع محدّدت.

-2-

وأَسواق العرب القديمة موزعة في أنحاء الجزيرة العربية بحسب مكانتها وأهميتها والقائمين عليها والوافدين إليها. فسوق "دومة الجندل" لقبيلة كلب، وسوق "المشقر" لتميم وعبد القيس، وسوق "هَجَر" في البحرين، وهناك أسواق تضاف إلى أمكنة ومدن خاصة كسوق عُمان، وسوق صُحار، وسوق الشحر، وسوق صنعاء. وهذه الأسواق كلها كانت لقبايل جنوب الجزيرة العربية التي يسق عليها الارتحال والسفر إلى شمالي بلاد العرب وأسواقها هناك. وإن كان بعض هذه الأسواق كبيراً وعاماً كسوق عكاظ التي يقد إليها معظم القبائل، ويجدون فيها كل ما يطلبون، ويحققون فيها جل ما يرغبون، وقريب منها سوق مجنة وسوق ذي المجاز، حيث تعقد هذه الأسواق الثلاثة في أزمنة متقاربة ومتتابة، بحيث ينتهي الناس منها في مدة واحدة، ويتجهون بعدها مباشرة إلى مكة ليقضوا مناسك الحج.

وقد استمرّت هذه الأسواق بعد ظهور الإسلام. وعندما قامت الدعوة الإسلامية وجدت في تلك الأسواق منبراً لنشرها والتعريف بها وحث الناس على الإيمان بها. فكان النبي ﷺ يعرض نفسه في بعض هذه المواسم على قبائل العرب ويدعوهم إلى الإسلام. وقد تمتّ في مثل تلك المواسم ببيعة العقبة الأولى، والثانية⁽¹⁾.

والأسواق في اللغة جمع سَوْق وهي موضع بيع البضائع والأمتعة. وأصل اشتقاقها من سَوَّقَ الناس بضائعهم إليها، والغالب عليها التَّأْنِيثُ، وهي لغة أهل الحجاز، ولذلك تصغر على "سَوِيقَة" لأنه اسم ثلاثي مؤنث، كما يقولون في "هند": هُنَيْدَة، وفي "شمس": شَمْسِيَّة. وبنو تميم يذكرون السوق، وشاهد التذكير قول شاعر أخذهُ سلطان فجَلَدَهُ وحَلَقَهُ:

(1) انظر: "القاموس الإسلامي" لأحمد عطية الله 1/110.

ألم يعظِ الفتيانَ ما صارَ لِمَتَيَّ بسوقِ كَثِيرِ رِيحِهِ وأعاصِرُهُ
ويقال: تسوّقُ القومُ: إذا باعوا واشتروا⁽¹⁾.

-3-

هذا، وإن أخبار أسواق العرب في الجاهلية والإسلام مبثوثة في بطون كتب الأدب والتاريخ واللغة والمحاضرات، لا يجمعها كتاب واحد، حتى انتدب لهذا الأمر الشاق أستاذنا المرحوم سعيد الأفغاني (1909-1997م) فقام بتأليف كتابه "أسواق العرب في الجاهلية والإسلام" وهو في أواسط العقد الثالث من عمره، وظهرت طبعته الأولى سنة 1936م/1355هـ، في أوقات عاشت فيها سورية أجواء أربعة معارض تجارية متنوعة، حدث الأفغاني رحمه الله على تأليف كتابه ذاك، وهي:

1- معرض الثمار والفواكه، الذي أقيم في مدينة دمشق في تشرين الثاني سنة 1927م، ودام خمسة أيام، واشترك فيه /1500/ عارض من مختلف المدن السورية وزاره من الرجال والنساء والأطفال من يزيد عددهم على الأحد عشر ألفاً: وكان أثره في نهضة الزراعة وانتعاشها مباركاً محموداً⁽²⁾.

2- معرض الصناعات الشرقية، الذي أقيم في المقر السابق للمجمع العلمي العربي (مجمع اللغة العربية اليوم) في المدرسة العادلية بباب البريد. وقد افتتح هذا المعرض في 3/8/1928م واقتصصر على دمشق لضيق الوقت، وكان ما عُرض فيه 627 من القطع المنوعة من السجاد والنحاس والأخشاب والأسلحة والمخطوطات والجلود والأقمشة والصور، وكل ما هو من الفنون الجميلة. وقد ظلت أبوابه مفتحة ثمانية أيام وزاره في خلالها أربعمائة ألفاً ونيف⁽³⁾.

3- معرض الصناعات الوطنية، أقيم في صرح الجامعة السورية (جامعة دمشق اليوم، المبنى القديم) وذلك في شهر آب سنة 1929م.

وقد عُرض فيه مصنوعات المناسج على اختلافها، والمصابغ والمطابع والمطاحن والمزابت والمصابين، عدا النفائس الشامية (السورية) من القطع الخشبية والنحاسية والمصوغات، والزجاج والمربيات و "السكاكر" ... الخ. وكان الإقبال على هذا المعرض أكثر من سابقه لشموله أكثر الصناعات الشامية (السورية)⁽⁴⁾.

⁽¹⁾ انظر "تاج العروس" لـزبيدي، مادة "سوق". واللمة بكسر اللام وتشديد الميم: الشعر الذي يتجاوز شحمة الأذن.

⁽²⁾ انظر مقدمة كتاب "أسواق العرب" ص 5 نقلاً عن التقرير الذي رفعه رئيس لجنة إدارة المعرض إلى وزير الزراعة والتجارة يومئذ نصوحى البخاري. ولم يذكر مكان هذا المعرض.

⁽³⁾ انصهر نفسه ص 5-6 نقلاً عن التقرير الخامس بأعمال المجمع العلمي العربي سنة 1928م ص 38.

⁽⁴⁾ انظر مقدمة "أسواق العرب" ص 6 (الطبعة الثالثة).

تاريخنا، ويستطيع أن يفاضل بين رسالتها قديماً ورسالة المعارض حديثاً.

-4-

ومن ثم عكف المؤلف على أمات المصادر -وهي في هذا الموضوع جدٌ شحيحة- وراح ينقبَ فيها ويفلّسها ليستخرج منها كل ما يفيد في بحثه، حتى تمت له مادة هذا الكتاب الذي سماه "أسواق العرب في الجاهلية والإسلام"، والذي يغطي حقبة تمتد قرابة ثلاثة قرون، ما بين العصر الجاهلي ونهاية القرن الثاني للهجرة (500-815 للميلاد)..

وإن الذي يطلع على هذا الكتاب القيم يُكبر هذا العمل الشاق ويوقن تمام اليقين أن صاحبه قد بذل فيه جهوداً مضنية، ولقي عناءً ونصباً شديدين، حتى استطاع هذا الكتاب أن يسد فجوة كبيرة من الفجوات في تاريخنا وتراثنا. آية ذلك تلك الحفاوة التي استقبله بها العلماء والأدباء من العرب والمستشرقين استقبلاً ما كان المؤلف "يطمع ببعضه" كما يقول، وأثنوا على الكتاب وصاحبه، ولا سيما المستشرق سالم الكرنكوي (فريتز كرنكو).

قسم المؤلف كتابه ثلاثة أبواب رئيسية، مهّد بالأولتين منها للكلام على أسواق العرب، ورأهما لازمين. وقد تضمنا بحثاً وثيقة الصلة بموضوع الكتاب، وهي تتم الصورة التي يريد المؤلف أن يتمثلها القارئ مستوفاة في غير نقص ولا زيادة حين يقرأ الباب الثالث الخاص بأسواق العرب، والذي هو أكبر أبواب الكتاب.

-5-

والسباب الأول عنوانه "شؤون العرب التجارية: بين الجاهلية والإسلام"، ويقع في نحو سبعين صفحة (15-87).

وهو إلمامة موجزة تهدف إلى بيان اهتمام العرب عامة بالتجارة، والتجارة أحد مواضيع الأسواق عندهم.

بداية هذا الباب: "تمهيد في تجارة العرب" تحدث فيه عن اهتمام العرب بالتجارة في جزيرتهم، وعن علاقاتهم التجارية والسياسية مع الدولتين العظيمتين اللتين تنازعتا النفوذ والسيادة في العالم عصرئذ، وهما فارس والروم، فضلاً عن علاقات أخرى أضيق حدوداً: كعلاقة الحبشة والهند مع اليمن وعمان والبحرين، نظراً إلى الموقع الجغرافي الذي تمتاز به بلاد العرب، والذي أطمع كثيراً من الفاتحين قديماً وحديثاً.

وقد شغلت دول العرب القديمة كندمر وسبأ والمعينيين في اليمن المراكز الممتازة في تجارة الشرق. وإن توسط تدمر بين الدولتين: الفارسية والرومانية -بين العراق والشام وجزيرة العرب- جعلها محطة القوافل جميعاً بين هذه الأقطار، فازدهرت تجارتها واشتهرت أسواقها حتى أصبحت قبلة التجار من الهند والفرس (وجزيرة العرب نفسها) والعراق وسورية وفلسطين ومصر وأوروبا.

ومعروف أن هناك رحلتي الشتاء إلى اليمن والحبشة، والصيف إلى مصر والشام والعراق (ص44). فلا بدع في أن تكون التجارة من أول أسباب المعاش للحجازيين، فعكفوا عليها، وتمادحوا بكسب المال، وأخذوا يضربون في الأرض ابتغاء الرزق، وبذلك عرفوا قبل الإسلام كثيراً من مدن الشام كبصرى وغزة، ومدن العراق واليمن ومصر. وكانت مكة نفسها المركز التجاري العظيم في جزيرة العرب، وكان على تجارة مكة اعتماد الروم في كثير من شؤونهم. واشتهر كل بلد بما يصنع أو يصدر، وخصه الله بشيء منعه غيره.

فالسيف والبرود لليمن، ودباغة الجاد في الطائف حيث يصدر إلى الحبشة. واشتهرت هجر والبحرين بالتمر الجيد المنقطع النظير. وكان يحمل من الشام إلى الجزيرة العربية: الزيت والزبيب والخمر، وغيرها.

وهذا الاختلاف والتنوع في المحصول هو الذي ضمن استمرار الحركة التجارية، الداخلية والخارجية، في جزيرة العرب. وفي القرآن الكريم إشارات ودلالات بعيدة على عظم ما شغلت أمور التجارة من أفكار العرب وخواطرمهم، ومن ذلك آية الجمعة التي تقرعهم حين تركوا الرسول ﷺ في "المدينة" يخطب على المنبر، وبادروا إلى تجارتهم قبل أن يفوتهم الربح، فنزل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا، قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ، وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (سورة الجمعة 11).

ثم دخلت أحوال العرب التجارية في طور جديد بعد ظهور الإسلام، الذي اهتم بأمر تجارتها وشرع لهم ما يحتاجون إليه من أحكام البيع والشراء والاحتكار والديون والربا.. الخ. كما أن اللغة والأشعار والأمثال تكشف لنا ما كان عليه القوم من عادات وأحوال في هذا الميدان، ومن أمثاليهم التي تتعلق بأمورهم انتجارية وأسفارهم قولهم: "عند الصباح يحمد القوم السرى" و "كسبتضع التمر إلى هجر".

وبعد ذلك يتحدث المؤلف عن "بيوع الجاهلية" (46-59) وأراد بها الأنماط الخاصة التي ألفها العرب في جاهليتهم من البيع، يتخذونها في أسواقهم، وهذه البيوع تصور لنا ما كان عليه تفكير فريق منهم، في بعض الأسواق دون بعض، وهي اثنا عشر نوعاً رئيسياً، نذكر منها:

1- الرمي بالحصاة (أو إلقاء الحجارة)، ومن صورته الكثيرة أن يقول أحد المتبايعين للآخر: ارم هذه الحصاة، فعلى أي ثوب وقعت فيو لك بدرهم. أو أن يقول: بعتك من الأرض إلى حيث تنتهي حصاتك (أي في رميها) ص46، 47.

2- المنابذة: ومن صورها أن يرمي أحد الرجلين إلى الآخر بثوبه وينبذ الآخر إليه ثوبه، ولا ينظر أحدهما إلى ثوب صاحبه. فيكون ذلك بيعهما، من غير نظر ولا تراض (ص48).

3- الملامسة: بيع الثوب عن طريق الملامسة، وذلك بأن يكون مطوياً، أو في الظلام، فيلمسه المستام، فيقول له صاحب الثوب: بعته بكذا، بشرط أن يكون لمسك مقام نظرك، ولا خيار

لك إذا رأيته (ص 49).

ولما جاء الإسلام أبطل معظم هذه البيوع الغريبة والفاصلة وشرع للمسلمين السهولة والسماحة والتبیین والوضوح في البيع.

ويأتي كلام المؤلف بعد ذلك على "ربا الجاهلية" (60-69) الذي انتشر في جزيرة العرب، حتى ألفه الناس وصاروا يأخذون به ويعطون، ومتى انتشرت عادة قبيحة ستر فشوها قبحها فلم يترفع عنها أحد. وقد شنع القرآن على كل من تعاوى الربا، وحرّمه جملةً واحدة، وأوجد الحلول لجميع العلاقات والمعاملات الربوية السابقة، كما حسم الرسول ﷺ الأمر في حجة الوداع، في خطبته البليغة المأثورة، حين قال:

"ألا إن ربا الجاهلية موضوع كله، وأول رباً أبدئ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب".

ويختتم المؤلف الباب الأول من كتابه "أسواق العرب" بالكلام على فئات من العرب في الجاهلية وهم "المُحَلِّون والمحرَّمون والخُمُس" (70-87) فيذكر أن العرب كانوا يعظّمون أمكنة خاصة وشهوراً معيّنة، يضعون فيها سلاحهم حتى يزايلوا المكان الحرام أو الشهر الحرام. وكان من بُعد النظر أن جعلوا أكبر أسواقهم يقام في الأشهر الحُرَم الأربعة، وكان من أعظم العار أن يتعدى المرء حدود الشهر الحرام والبلد الحرام.

على أن رعاية الحرم -على ما تقدم- ليست مطردة، إذ أن هناك قبائل معدودة لا تتقيد بهذه المحرمات. أما قریش فقد حظيت بين العرب بمكانة سامية وزعامة تجارية لأنها تسكن الحرم، حيث الأمن والسلم، ولأنهم سدنة البيت والقائمون بأمر الحجاج أيام الحج، فأذعن لهم العرب بذلك، ومن ثم ضرب القرشيون في أنحاء جزيرة العرب متاجرين لا يعرض لهم أحد. وتبعاً لهذه المكانة والتعظيم لهم تلقبوا بالحُمس، هم وأحلافهم من قبائل أخرى، ومنحوا أنفسهم من الامتيازات ما ليس لغيرهم.

وهذا التزيد من قریش علم الناس الاحتیال وارتیاد المنافع والاستیانة بالحرمات، بشتی الأسالیب، لیسجدوا فی حرمة الشیر والحرم خیر ملاذ. ومن ثم کثر هؤلاء حتی سُمُوا (بالمُحْلِین). وبالمقابل هناك قبائل أخرى حفظت للمکان قدسه وللشیر حرمة، وأنکرت علی المُحْلِین استخفافهم، فسمُوا (بالأداة المحرمین) وهم أغلب العرب، حتی إن نفراً منهم أحلّوا قتال المُحْلِین بالسلاح ودفعوا عن الناس شرهم وأذاهم.

-6-

أما الباب الثاني من كتاب "أسواق العرب" فقد كان موضوعه "أحداث قریش التجارية" (89-190) وتناول فيه أربعة أمور، وهي:

قريش التجار، إيلاف قريش، حرب الفجار، حُف الفضول.

ففي حديثه الأول ذكر سبب تسمية "قريش" بهذا الاسم، وأورد ثمانية آراء في ذلك، أشهرها أنهم كانوا أهل تجارة وتكسب في البلاد، يتقرشون (أي يجمعون) البياعات فيشترونها، أو لتجمعهم إلى الحرم بعد تفرقهم في البلاد، ولم يكونوا أهل زرع وضرع.

وقريش في الأصل طبقتان -من حيث السيادة- فهناك (قريش البطاح) وهم الذين نزلوا بطحاء مكة وبطنها، من بني هاشم وبني أمية، وهم سادة القرشيين. وهناك (قريش الظواهر): نزلوا أعلى مكة وانتشروا حولها في ظواهرها (ضواحيها) وهم دون قريش البطاح شرفاً وشأناً.

ولقریش بعد ذلك - مكانتها التجارية والاجتماعية والدينية، وأشهر رجالها: قصي بن كلاب، وهاشم بن عبد مناف، والمطلب بن عبد مناف، وعبد المطلب بن هاشم.. وبقيت هذه المكانة لأولادهم وأحفادهم في الإسلام، وهي أشبه بالوظائف الرسمية.

ففي التجارة كان القرشيون يسيرون قوافل عظيمة، معها حامياتها وأدواتها وأدلاؤها، وأدى ذلك إلى اختلاطهم بالأجانب المتحضرين كالروم والفرس والحِشَان، وإلى تمييزهم بأمور منها: اللباقة والكياسة، والفصاحة في اللغة، والعلم والثقافة، وتعلم فريق منهم الكتابة، كما كان أكثر كتّاب الوحي منهم. وقل أن تجد قرشياً ذا شأن في الجاهلية والإسلام إلا كان تاجراً.

أما مكانتها الدينية بين العرب فتجلى في أمرين: أولهما الرفادة، أي تقديم الطعام للحجاج، وهذا ما أغراهم بالقدوم إلى مكة والإقبال على تلك الأسواق التجارية، وبذلك تضمن قريش رواج تجارتها التي هي قوام أمورها في الحياة. وثاني الأمرين: كسوة الكعبة وما يتصل بذلك من أمور، وكان ذلك مدعاة لتباهي قريش به أمام سائر العرب، حتى إن أفراداً آخرين من غير قريش راحوا يشربون إلى تحقيق ذلك الشأن.

وفي القسم الثاني من هذا الباب يتحدث المؤلف عن "إيلاف قریش" (161-174) وهو ما يمكن أن يسمى في عصرنا بالمعاهدات التجارية.

وهو أبرز حادث في تاريخ العرب التجاري قبيل الإسلام، وقد أخبر به القرآن الكريم. وهناك آراء في تحديد معنى "الإيلاف" (148)، ومنها الرِّبْح المخصوص الذي جعله هاشم بن عبد مناف لرؤساء القبائل لكي يكفّهم مؤونة الأسفار، ويكفي قريشاً الأعداء، ومنها: العهد، وشبه الإجازة والخفارة، ممّا هيأ لقريش - حين أخذ لها الإيلاف (العهد) من الملوك- أن ترحل إلى الشام والحبيشة واليمن والعراق...

ثم ذكر المؤلف الإيلافات أو المعاهدات التجارية التي عقدتها قريش مع العرب والروم والحبشة وفارس، وبذلك خرجت تجارة قريش من طابعها المحلي وأفقها المحصور إلى رحابة الآفاق الأجنبية، فانتسعت تجارتها وارتقت مكانتها الاجتماعية وكثرت أموالها، بفضل الإخوة الأربعة هاشم، والمطلب، وعبد شمس، ونوفل، أبناء عبد مناف. وهم أصحاب الإيلاف الذين رفع الله بهم قريشاً ونعش فقراءها، وبنى تجارتها على أسس قوية، حتى صارت شبه دولية بعد أن كانت محلية.

-7-

ونصل أخيراً إلى الباب الثالث من كتاب "أسواق العرب" وهو أهم أبواب الكتاب (191-454) وأكبرها. وقد جعله مؤلفه في ثلاثة أقسام:

1-الكلام على أسواق العرب عامة (193-229)

2- أسواق العرب في الجاهلية (231-389).

3- أسواق العرب في الإسلام (391-452)

ففي تمهيده عن "أسواق العرب عامة" يبدأ بالجانب اللغوي لكلمة "السوق" وأنها اشتقت من سوق الناس بضائعهم إليها، وتذكر الكلمة وتوثق، والغالب عليها التأنيث. والمقصود بالأسواق هنا ما كان منها موسمياً (سنوياً) يقام في شهر معين أو أيام معينة منه.

وأسواق العرب منها المحلي الذي يقتصر على ما يجاوره من القرى القريبة كسوق هجر، ومنها ما كان عاماً يقد إليه الناس من أطراف الجزيرة كلها كسوق عكاظ. فإذا كان لإحدى الأسواق موقع جغرافي ذو بال - كأن تكون على ساحل البحر، مثل سوق عَدَن، وصنعاء وعُمان - كان شأنها أكبر من بقية الأسواق التي في قلب الجزيرة لشيوع الاتجار فيها مع الجيران، من هند وحبيشة وفرنس، في حين أن الأسواق الداخلية تقتصر على القبائل المتاخمة لها.

أما الإشراف على أمور تلك الأسواق وشؤون الناس التجارية فكان يتولاه في بعض هذه الأسواق - أمراء يأخذون الضرائب من الناس، أو رؤساء يهيضون الأسواق لجمع الإتاوات، أو أشرف يقدون على الأسواق التي تكون تحت سيطرة أمير من الأمراء، ليستوفوا نصيبهم من الربح الذي جعله لهم ذلك الأمير. بل إن بعض الأسواق كان يقع تحت سيطرة دولة أجنبية، كسوق المشقر، التي تحكم كسرى بأهلها وتجاريتها.

وأما عروض التجارة التي كانت تُحمل إلى الأسواق فأكثرها لا يتعدى التمر والزبيب، والزيت والسمن، والأدم (الجلد) والورس (نبات يُصبغ بورقه) وأنواع الطيب، والثرود، وبعض ضروب الحيوان، كالمواشي والإبل والخيول، حتى القروود أحيانا، وذلك على اختلاف بين سوقٍ وأخرى فيما يغلب على عروضها التجارية بالقياس إلى غيرها.

وهذه الحركة التجارية حملت إلى العرب كثيراً من ألوان الترف التي لا عهد لهم بمثلها، فتغالى أشرافهم بالثياب والبُرود والطيب والسلاح، وشرب الخمر التي أمعنوا في استحضارها من مصادرها المشبورة، من بلاد الشام والعراق، وتمدح الشعراء بشربها والإنفاق عليها، والتردد على حوانيتها، كقول عنترة:

رَكَدَ الْهَوَاجِرُ، بِالْمَشُوفِ الْمُغْلَمِ

ولقد شربتُ من المُدَامَةِ، بعدما

قُرْنَتَ بِأَزْهَرَ فِي الشَّمَالِ مَفْدَمَ

بـزجاجة صفراء ذات أسرة

فإذا شربتُ فإنني مستهلكٌ مالي وعرضي وافر لم يُكَلِّمْ⁽¹⁾

وهذه الأسواق يغشاها عامة العرب، لأن شغل أكثرهم التجارة، أو الكسب والشراء. وكان أعظم ما يدفع العرب في الجاهلية إلى قصد تلك الأسواق: قيام كثيرٍ منها في الأشهر الحرم، وشيوع الأمن حرمة للشهر، ولأن مواسم بعض الأسواق كعكاظ ومجنة وذئ المجاز تقع في أيام حجهم، ويأتونها من كل أوب ومعهم خيرات بلادهم.

ويضاف إلى الأهمية التجارية والأمنية، وإلى تحقيق مختلف الغايات في هذه الأسواق أن فيها، أو في بعضها تناشد أشعار، وتفاخرأ وتكاثراً، وكان لهم حكّام يفرضون المشكلات بين القبائل، ومحكمون يحتكم إليهم الناس في مفاخراتهم وأشعارهم، كما لهم خطباؤهم أيضاً. ومن حكّامهم في الجاهلية: أكتّم بن صيفي، والأقرع بن حابس، وعامر بن الظرب، وصفوان بن أمية.

وهناك نشاط آخر في تلك الأسواق لا يقل شأنًا عن النشاط التجاري، وهو أثر ذلك الاختلاط بين القبائل في اللغة، والعادات، والدين:

فالشعراء في عكاظ يتوخون اللغة المُجمَع على فصاحتها، والتي صار لها من النفوذ والشيوع ما للغات العامة اليوم، فكان لهجة قريش هي اللهجة الرسمية بين لهجات الجزيرة كلها، لأن قيام هذه القبيلة على الأسواق أعواماً طويلة قبل البعثة مكنها من أن تتبوأ في اللغة المكان الأعلى، ولأنها اختارت من لغات القبائل الوافدة عامة ما يحسن، ونفت ما يفتج، حتى خلصت لها — بعد زمن طويل — هذه اللغة الممتازة التي نزل بها القرآن الكريم.

أما العادات: فقد سرى التأثير والتأثير بين الوافدين على هذه الأسواق، من حجازيين، ونجديين، ويمنيين، وعُمانيين، يقبس بعضهم من بعض ألواناً من العادات.

وكذلك أمر الدين، ولعل أثر الاختلاط في الدين أبلغ، لقيام الجميع بمناسك واحدة، يؤمهم فيها قريش أهل الحرم. فأعظم آثار الأسواق قبل البعثة هو هذا التوحيد الذي جرى بين القبائل العربية من عامة الأقطار، ولا سيما التوحيد اللغوي المتمثل في انتقاء الألفاظ والأساليب، وشيوعها بوساطة الرواة في القبائل. بل إن نهضة الشعر مدينة للأسواق عامة، ولعكاظ خاصة. عُرف لها هذا الأمر منذ الجاهلية حتى اليوم.

فلما جاء الإسلام ضعف الشعر لأسباب شتى، وضؤل أمر عكاظ، ثم احتل مكانها سوق المربد في البصرة، وراح يتم رسالتها في الأدب والشعر، بل زاد عليها بما استجد من أمور في حياة العرب المتحضرة، وألوان في المعاش والحياة الاجتماعية والأدبية.

ثم أقل نجم تلك الأسواق برسوخ العرب والمسلمين في الحضارة، ونشوء المدن الكبرى

(1) الفواجر: جمع هاجر، وهي حرّ نصف النهار — والشوف: الإناء المخلو والجار والمجورور "بالشوف" متعلقان بشربت — والمعلم: ما عليه علامة — والأسرة: الخطوط — والأزهر: يعني الإبريق الأبيض — والمنقذ: ما عليه القدام وهي المصفاة تُجعل على فم الإبريق.

المتناهية في الحضارة. فعكاظ أہملت سنة 129ھ (قُبيل زوال الخلافة الأموية 132ھ). وآخر ما انقرض من تلك الأسواق سوق حُباشة في تِهامة، بين الحجاز واليمن، وذلك سنة 197ھ.

أما عدد الأسواق عند العرب، وتحديد أوقاتها، فليس هناك اتفاق بين المؤلفين القدامى على هذين الأمرين ولا سيما تاريخ قيام الأسواق، لعدم التزام العرب كل سنة بيوم ثابت لإقامتها، ويوم آخر محدّد لتقويضها. وقد استطاع المرحوم الأفغاني أن يبلغ بها العشرين سوقاً، وهي ثلاثة أصناف:

- 1- أسواق خاضعة لنفوذ أجنبي: فارسي، كهَجَر وعُمان، أو روماني كما في بصرى وغزّة. ويتولى أمرها كلّها عمّال عرب لأخذ الضرائب فهم معيّنون من قبل ولاية الفرس، وولاية الرومان.
- 2- أسواق أنشأها العرب أنفسهم بحكم الحاجة، فصارت مع الزمن تمثّلهم أصدق تمثيل في عاداتهم وبيوعاتهم، ولا يشرف عليها إلا سادة أهلها. وخير ما يمثل هذا الصنف: سوق عكاظ.
- 3- أسواق ذات صبغة مختلطة، نظراً إلى موقعها الجغرافي، وهي التي تكون على البحر: كَعَدَن، وصُحار. وفيها يجتمع تجار الحبشة والهند والصين وفارس، ويضوّل فيها الطابع القومي بمقدار ما يقوى شأنها التجاري.

8.

ثم ينتقل المؤلف إلى الكلام على "أسواق العرب في الجاهلية" (231—389) وهي عند عشرون سوقاً واقعة في أماكن تضاف إليها، وهي:

(دومة الجندل، المشقّر، هَجَر، عُمان، حُباشة، صُحار، دَبى، الشَّحر، عَدَن أبين، صنعاء، حضرموت، عكاظ، مِجَنّة، ذو المجاز، نطاة خيبر، حَجَر، دير أيوب، بَصْرى، أذرعات، الحيرة).

ويلاحظ أن اسم كل سوق مرتبط بالمكان أو البلد الذي تقام فيه، وأن من هذه الأسواق ما هو داخل جزيرة العرب وهو الأكثر، ومنها ما هو خارجها.

وفي حديث المؤلف عن كل سوق يفصل الكلام على اسمها وموقعها الجغرافي وحدودها وتطوّرها على مر السنين، وصاحبها أو المشرف عليها، ومن يفد إليها أو يجاورها من القبائل، وما يباع فيها من بضائع وسلع وأمتعة وموّن، وزمن انعقادها، ومتى تفتّر حركتها وينقضي موسمها، وما قيل فيها من الأشعار. وقد يعرض لنا مشاهد ومناظر ومواقف فيها كأنك تراها. وحديثه عن السوق يطول أو يقصر، يفصل أو يوجز، بحسب أهمية تلك السوق وشهرتها، أو بحسب ما يتوافر له من مصادر عنها.

على أنه يخصّ سوق عكاظ بأوفى نصيب وأوسع تفصيل، حتى يصل حديثه عنها إلى نحو

السبعين صفحة، ولا يمكن إيفاؤها حقاً من الكلام في هذا البحث. فلنكتفِ بأهم ما ذكر عنها في الكتاب:

فمن الناحية المصرفية يجوز صرف اسم "عكاظ" ومنعه. وقد جرى المؤلف على منعه لأنه رأى المنع هو الأكثر فيه والأشهر.

أما اشتقاق كلمة "عكاظ" وسبب تسميتها بذلك، فملغويين في ذلك مذاهب، وأقربها أن العرب كانت تجتمع فيها فيعكظ بعضهم بعضاً في المفاخرة، أي يقيره. وقيل إنها من التعاكظ أي التفاخر. والزمن الرسمي لهذه السوق هو شهر ذي القعدة. والأكثرون على أنها تبدأ من أول ذي القعدة وتستمر حتى العشرين منه. ولكن هذا لا يمنع تقاطر الناس إلى عكاظ قبل بداية الشهر، ولا تأخرهم عن العشرين حتى اقتراب موعد الحج.

وموقع عكاظ واد واسع مستو ذو نخيل ومياه، بين مكة والطائف، جنوبي مكة إلى الشرق. ويؤم هذه السوق معظم قبائل العرب، قادمين من العراق والبحرين واليمامة وعُمان واليمن وسائر أطراف الجزيرة يختلط بعضهم ببعض، فهي عامة لا تخص قبيلة أو قبائل بعينها، وهذا من أهم مزاياها. فضلاً عن أن قربها منحها حرمة عظيمة.

وفي هذه السوق تقيم القبائل، فيقبل قيامهم بالحج، يتبايعون السلع والبضائع، ويتناشدون الأسعار، ويتفاخرون ويتنافرون وكانت الحكومة في الشعر للنايعة الذبياني، كما كان بنو تميم وأفخاذهم يقومون بأمر الحكومة عامة والفضل والقضاء بين الناس، وضبط أمورهم من خلال الإشراف على السوق، كما تضبط أمور كل قبيلة أشرافها وقادتها.

فسوق عكاظ إذن مجمع ضخم حافل لم يكن للعرب أحفل منه سياسة ومفاخرة وفداء أسرى، وأدباً وحرماً ومتاجرة، وهي المعرض العربي العام أيام الجاهلية، بل هي مجمع أدبي لغوي رسمي، يضم الشعراء والرواة من عامة الأقطار العربية، وكل منهم يحمل أدبه ولغته وألفاظه، فما تزال عكاظ بتلك اللهجات غربلة ونخلًا واصطفاءً حتى يتبقى الأنسب الأرشق، ويُطرح المَجْجُوفُ الثقيل.

وعكاظ هي السوق التجارية الكبرى لعامة أهل الجزيرة، يُحمل إليها من كل بلد تجارته وصناعاته وأدبه: من خمر بلاد الشام والعراق، وبُرود اليمن الموشاة، وأنواع الطيب والسلاح، ويباع فيها الحرير والأحذية، وزيت الشام وزبيبها، حتى الرقيق الناشئ عن الغزو، وسبي الذراري يباع فيها بيع المتاع التجاري.

ثم إن هذه السوق معرض لكثير من عادات العرب وأحوالهم الاجتماعية التي سبقت الإشارة إلى بعضها: من خطب ومنافرات وتحكيم بين الخلافات، ومصارعة بين الأبطال من الفتيان، ووجود فئات أخرى غير أولئك، من كاهن وعراف وعائف وقائف⁽¹⁾ وقرّذ وغنم وصحيفة وكاتب.

(1) العائف: من يزجر الطير، فيكون طيراً سبياً للنشأوم أو النفاؤل. وصنعتُه العيافة. والعائف: من يحسن معرفة الأثر ويتبعه. وتسمى حرفته: القيافة.

وهناك أناس من غواة الشهرة: هذا يمدّ رجله متحدثاً وينشد شعراً ويقول: "من كان أعزّ العرب فليقطع رجلي". وآخر يأتي عكاظ ببنايته ترويحاً لزوجين، وأناس قدموا إليها ليختاروا من يتزوجون إليه. وهكذا تكون في عكاظ أشياء لا تعهد في أسواق العرب الأخرى.

وعكاظ أيضاً ندوة سياسية عامة، تُقضى فيها أمور كثيرة بين القبائل: من جمع الإتاوات، وإعلان المآثر شعراً، وإعلان الحرب على عدو، والتشهير بمن يأتي عملاً شائناً، واستلحاق أحد بنسب رجل، أو التبرؤ علناً من قريب لسبب ما، حتى لا يتعامل معه أحد.

والخلاصة أن هذه السوق الكبرى، سوق عكاظ، تمثل لنا — بما يكون فيها — أحوال العرب وعاداتهم الاجتماعية في جوانب كثيرة كما رأينا. وهناك شبه كبير بين عكاظ ومعارض عصرنا هذا، بل إن عكاظ لأوسع مدى، فهي لا تقتصر على مواد التجارة والصناعة، بل تتعداهما إلى الأدب والشعر والحرب والسلم والعادات السائدة. وما يجري في عكاظ كان يجري قريباً منه في بقية أسواق العرب، ولكن بصورة مصغرة.

وبعد الكلام المفصل على عكاظ، وأحوالها. وتاريخها، مما سبق بيانه، يعرض المؤلف لنا مثلاً ومشاهد ونصوصاً عما كان يجري في عكاظ (293—337) استمدّها من مصادر شتى قديمة، نكتفي منها بالمشهد التالي بعنوان "ما رأيت شيخاً أكذب" ص(337):

"مرّ المستوغر بن ربيعة⁽¹⁾ — شاعر معمر — بعكاظ يوماً، وعلى ظهره ابنُ ابنه شيخاً هرمًا، فأعيا من حمّله، فوضعه بالأرض وقال: عنيتني صغيراً وكبيراً. فسمعه رجل فسأه ذلك، فالتفت إليه ناصحاً: يا عبد الله، أقول هذا لأبيك؟ أحسن إليه، فطالما أحسن إليك. قال المستوغر: أتدري من هو؟ قال الرجل: نعم، هو أبوك أو جدّك. قال: هو والله ابنُ ابني. قال الرجل: ما رأيت شيخاً أكذب. لو كنت المستوغر بن ربيعة ما زدت. قال: فأنا المستوغر بن ربيعة".

وبعد أن يعرض المؤلف هذه المشاهد المختلفة لعكاظ والتي جعلتنا نعيش أجواء هذه السوق، ونستحضرها في أذهاننا خلال قراءتنا الأدبية أو التاريخية، عن ذلك العصر، يقول:

"الآن نستطيع أن نفهم: لم يعد مؤرخو الأدب عكاظ في أول ما وحد لهجات القبائل العربية قبل نزول القرآن الكريم بأكثر من قرن، وهياً لقريش تلك الزعامة والتحكم في اللغة والانتقاء، فسلمت من عيوب الليجات، وعرفت أيضاً أن عكاظ دنيا تعج بالقاصدين من كل فج عميق... فأنت إذ تجول في عكاظ يتقسم سمعك خطب وقصائد ومفاخرات ومنافرات وخصومات، وأنماط من البيع لا تتشابه وأزياء في اللبس والتكلم والمراكب... تجمعت من كل صوب".

ويختم كلامه على سوق عكاظ بقوله: (ص342):

(1) عمّر طويلاً جداً، وأدرك صدر الإسلام. ولقد بالغوا في عمره حتى أوصلوه إلى (320) سنة، وقد سُمّ حياته وكثر أخفاده أصغار. ومن شعوره:

"لَسْنَا نَعْلَمُ لِهَذِهِ السُّوقِ بَدَايَةَ مَحْدُودَةٍ. إِلَّا أَنَا نَرْجَحُ وَجُودَهَا قَبْلَ الْقَرْنِ السَّادِسِ الْمِيلَادِيِّ. وَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ وَتَوَطَّدَتْ أَرْكَانُهُ فِي الْجَزِيرَةِ وَالْعِرَاقِ وَالشَّامِ، بَدَأَ شَأْنُهَا يَضُؤُلُ. وَلَمْ تَزَلْ قَائِمَةً إِلَى أَنْ خَرَجَتْ الْخَوَارِجُ الْحَرُورِيَّةُ مَعَ الْمُخْتَارِ بْنِ عَوْفٍ بِمَكَّةَ سَنَةَ 129 لِلْهِجْرَةِ، فَتَنَبَّهُوا، فَتَرَكْتُ إِلَى الْآنَ.

وَعَلَى هَذَا تَكُونُ هَذِهِ السُّوقُ قَدْ عَمَرَتْ أَكْثَرَ مِنْ قَرْنَيْنِ وَنِصْفِ الْقَرْنِ"⁽¹⁾.

9.

وَفِي الْقِسْمِ الثَّانِي مِنَ الْبَابِ الثَّلَاثِ، يَتَحَدَّثُ سَعِيدُ الْأَفْغَانِي رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ "أَسْوَاقِ الْعَرَبِ فِي الْإِسْلَامِ" ص 393-452 وَيَمَيِّدُ لَذَلِكَ بِالْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ الْعَرَبَ تَحْضُرُوا فِي الْإِسْلَامِ وَسَكَنُوا الْمَدْنَ الْكَبِيرَةَ مِنْ بِلَادِ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ وَمِصْرَ وَفَارِسَ وَالرُّومَ، كَالْكُوفَةِ وَالْبَصْرَةِ وَبَغْدَادَ وَالْقَيْرَوَانَ، فَصَارَتْ كُلُّ مَدِينَةٍ تَسْتَغْنِي بِأَسْوَاقِهَا الْمَحَلِّيَّةِ الدَّائِمَةِ عَنِ الْأَسْوَاقِ السَّنَوِيَّةِ الْمَوْسِمِيَّةِ، وَكَفَى اللَّهَ الْعَرَبَ مُؤَوَّنَةً التَّرْحَالَ بَيْنَ أَسْوَاقِ الْجَزِيرَةِ، بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَمَا سَهَّلَ مِنْ تِجَارَاتٍ تَأْتِيهِمْ إِلَى مَدَنِهِمْ مِنَ الْبِلَادِ الْآخَرَى.

فَامْتَحَتْ أَسْوَاقُ الْجَاهِلِيَّةِ قُبَيْلَ انْقِضَاءِ الْقَرْنِ الثَّانِي لِلْهِجْرَةِ، وَرَسَخَتْ أَقْدَامُ التِّجَارَةِ فِي الْمَدَنِ وَالتَّغُورِ.

وَلَكِنْ سَوْقاً وَاحِدَةً نَشَأَتْ فِي الْإِسْلَامِ، وَاحْتَفَظَتْ بِكَثِيرٍ مِنْ خِصَائِصِ أَسْوَاقِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَزَادَتْ عَلَيْهَا بِمِيزَاتٍ وَاسِعَةً، جَاءَتْ بِهَا الْحَضَارَةُ الْجَدِيدَةُ وَالرَّقِي الْمُسْتَحْدَثُ، تِلْكَ السُّوقُ هِيَ سَوْقُ الْمَرْبَدِ فِي الْبَصْرَةِ. وَقَدْ اسْتَطَاعَتْ هَذِهِ السُّوقُ أَنْ تَصِيرَ الْحَيَاتَيْنِ مَعاً: الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِيَّةِ، فِي بُؤْتَقَةٍ وَاحِدَةٍ لَتَصَوِّغَ مِنْهَا هَذِهِ الْحَلِيَّةَ الْعَجِيبَةَ.

كَانَتْ هَذِهِ السُّوقُ إِذِنْ تُقَامُ فِي مَدِينَةِ الْبَصْرَةِ، وَهِيَ سَوْقُهَا الْعَامَّةُ. وَلِهَذِهِ الْمَدِينَةُ (الْبَصْرَةُ) مَكَانَتِيَا التِّجَارِيَّةِ، فِيهِ ثَغَرُ الْعِرَاقِ فِي الْإِسْلَامِ، بَعْدَ أَنْ اسْتَحْدَثَتْ وَخُطَّتْ سَنَةَ 17 هـ بِأَمْرٍ مِنَ الْخَلِيفَةِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، وَكَانَتْ مَوْضِعَ اِهْتِمَامِ الْخُلَفَاءِ مِنْ بَعْدِهِ حَتَّى عُدَّتْ مِنْ أَكْبَرِ ثَغُورِ الْإِسْلَامِ قَاطِبَةً، وَمِنْ أَغْنَى الْمَدَنِ وَأَحْفَلِيَا بِأَسْبَابِ الْحَضَارَةِ وَالرَّقِي، وَهِيَ مِينَاءُ الْعِرَاقِ الْأَكْبَرِ، وَسَوْقُ الْعِرَاقِ الْعَامَّةِ.

وَلَا نَنْسَ هُنَا أَنْ نَشِيرَ إِلَى شِبْرَتِهَا الْآخَرَى، وَهِيَ مَا اسْتَفَاضَ فِيهَا مِنْ عُلُومٍ وَلُغَةٍ وَأَدَبٍ وَشِعْرِ حَتَّى صَارَتْ تَقْصِدُ لَذَلِكَ مِنْ دُونِ سَائِرِ الْبِلَادِ، وَكَثُرَ فِيهَا الْعُلَمَاءُ وَالشُّعْرَاءُ وَالْأَدْبَاءُ وَالْكَتَّابُ وَالْفُقَهَاءُ وَالْقُرَّاءُ كَثْرَةً تَسْتَعْصِي عَلَى الْإِحْصَاءِ. وَيَكْفِي أَنَّهَا أَظْهَرَتْ ثَلَاثَةً مِنْ فِرْسَانِ الْبَلَاغَةِ وَالْعَبْقَرِيَّةِ الَّذِينَ تَشَارَكُوا فِي صِفَتِهَا وَهُمْ: خَالِدُ بْنُ صَفْوَانَ التَّمِيمِي، وَالْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ الْفَرَاهِيدِي، وَالْجَاهِظُ.

⁽¹⁾ "أَسْوَاقُ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ" ص 342-343.

وقد اشتهرت البصرة بسوق المربد الموسمية، التي ورثت سوق عكاظ، وقضت على ما كانت تتمتع به من ميزات منذ عصر الراشدين فما بعده، حتى أصبحت "عكاظ الإسلام".

كان موقع المَرَبِد في الجهة الغربية من البصرة إلى البادية، ليكون أول ما ينزلون به إذا قصدوا البصرة، وآخر ما يتركون إذا رحلوا عنها. ومعنى "المريد": مَحْبِس الإبل ومربطها، ويبرد التمر. ويبدو أنه كان في الأصل كذلك، ثم صار في العصر الأموي سوقاً عامة كسائر الأسواق الموسمية في الجاهلية: من تعاطي البيع والشراء، وسماع الشعر والأدب والخطب واللغة، إلى جانب تفاخر الأشراف، وتهاجي الشعراء وتشاور الناس، وإحياء ما أماته الإسلام من حمية جاهلية وعداوات وثرارات.

وهذه السوق تقع حوادثها ونشاطها بين سنة 36 هـ (في أول خلافة الإمام علي) وأواخر القرن الثاني الهجري (في خلافة الأمين بن هارون الرشيد)، إذ اضمحل شأنها مع سوق حُباشة آخر أسواق الجاهلية انقراضا وزوالاً.

ولهذه السوق "المِربد" أثر بعيد في اللغة العربية من وجوه كثيرة فافت فيها أثر عكاظ. وكانت تعج بأعلام اللغة والأدب والشعر والنحو، الذين يفنون على المِربد ومعهم محابريهم ودفاتريهم يكتبون عن فصحاء الأعراب هناك، بعد أن انتشر اللحن والعجمة، وبدأ التدوين والتأليف على نطاق واسع. وكذلك الشعر وحلقاته، فكل شاعر حلقة، ولكل متهاجين مجلس، ولكل قبيلة ناد وشاعر يزود عنها.

ثم إن المربد يستفرد بأنه رَفَذَ اللغة بمادة كثيرة، عليها أسس النحاة قواعدهم وضبطوها عن طريق الاتصال وملازمة فصحاء الأعراب للاستفادة والتعلم. فكان المربد ينبوعاً ومصدراً لأكثر مواد كتب الأدب واللغة والأخبار: كالأغاني، والأُمالي، والبيان والتبيين، والكمال...

وهكذا جمع المربد بين التجارة والأدب واللغة والسياسة والحرب أيضاً، إذ كان مسرحاً لموقعة الجمل، وثورة عبد الرحمن بن الأشعث أيام ولاية الحجاج على العراق، وفي المربد ألقى ابن الأشعث خطبه في حضن الناس على الثورة. واتسع أمر المربد وكثر قاصدوه وازدان بأفحل الرجّاز والشعراء الذين أخرجهم العيد الأموي: كجرير والفرزدق والأخطل والراعي النميري، ومن الرّجّاز: أبو النجم العجلي، ورؤبة وأبو العجاج.

واستمر المربد في العصر العباسي، على شيء من الاختلاف عما كان يؤديه في العصر الأموي، وتبدلت الحياة الاجتماعية للناس، وظهرت العلوم تراحم الأدب والشعر، وبدأ الفساد واللعن يسريان إلى اللغة فتحول المربد ليؤدي غرضاً يتفق وهذه الحياة الجديدة، وأصبح مقصداً للأخذ عن الأعراب: اللغة والشعر والأخبار لتدوين ذلك كله، فيقصده أمثال بشار بن برد، وأبي نواس، والأنصمي، وأبي عمرو بن العلاء. وخرج النحويون ليسمعوا من أهل المربد ما يصحح أغلاطهم، ويؤيد مذاهبهم، من كوفيين وبصريين، كما خرج الأدباء ليأخذوا الأدب، من جمل بليغة، وشعر رصين، وحكم وأمثال، مما خلفه عرب البادية أو توارثوه عن آبائهم، كما فعل الجاحظ.

كل ذلك نجده في المرشد الذي أصبح أيضاً منشرة للمحامد والمساوى، لتكون أشيع وأسير وأبلغ

في الإرضاء والإغاظة. كما كان المربد مسرحاً لدعوات سياسية ودينية واستغاثات وشكوى ورناء وفخر، كما كانت سوق عكاظ. وكان أحفل أيام المربد في النصف الثاني من العهد الأموي، والثالث الأول لعهد العباسيين.

وبعد أن أوفى الأستاذ الأفغاني على الغاية من الكلام على سوق المربد، راح يسرد مشاهد ونصوصاً قديمة تكمل صورة هذه السوق على اختلاف المناحي والغايات، ولا سيما في الفترة الخصبة والحافلة التي سبقت الإشارة إليها. وكان عدد ما أورد من النصوص والأخبار والمشاهد تسعة عشر، وكلها حافلة بما كان يجري في المربد من حوادث ومواقف غنية وطريفة. (424-452). فمن ذلك خبر أورده بعنوان "مجنون في حب". وهو منقول عن أمالي القالي، رواه أبو علي بسنده عن محمد بن أبي نصر، قال:

"رأيت بالبصرة مجنوناً قاعداً على ظهر الطريق بالمربد، فكلما مرّ به ركّب قال:

ألا أيّها الركب اليمانون عرجوا علينا، فقد أمسى هوانا يمانيا

نسائلكم هل سالّ "تعمان" بعدكم؟ وحُبّ إلينا بطن "تعمان" واديا

فسألتُ عنه، فقليل: هذا رجل من البصرة، كانت له ابنة عم يحبّها، فتزوجها رجل من أهل الطائف فنقلها، فاستولّت عليها⁽¹⁾."

10.

وبانتهاء الكلام على المربد، ينتهي كتاب "أسواق العرب في الجاهلية والإسلام" لأستاذنا سعيد الأفغاني رحمه الله. وجاءت بعد ذلك فهرس الكتاب، التي تيسر الانتفاع به وتضع مضامينه على حبل الذراع، وهي ثمانية فهرس أو مسارد:

(الآيات، الأحاديث، الأعلام، انجماعات، الأماكن، الأشعار، الكتب، الموضوعات).

ونعقب على ذلك كله بجملة من الملاحظات حول هذا الكتاب القيم:

1- يعدّ هذا الكتاب ذرةً ثمينة في عقد مؤلفات الأفغاني، بموضوعه الذي لم يسبق إليه قط، وما زال مرجع الناس في ميدانه إلى اليوم، ولم يُولف بعده مثله، وقد قدّم للباحثين والمؤرخين خدمة جليلة تبقى على الدهر.

2- بذل مؤلفه فيه جهوداً مضنية وهو يجمع ما تفرّق في بطون الكتب، من أدب ولغة وتاريخ، ولم يكتف بما عرضه من أخبار الأسواق عند العرب، بل عني - إلى جانب ذلك - بما يغني تاريخ الأدب والسياسة والاجتماع والاقتصاد في العهود العربية الإسلامية من

(1) أسواق العرب ص 425 وقد التزمنا نصّ أول الخبر كما ورد في الأمالي 2/ 123. وتعمان، بفتح النون اسم وادٍ مشهور. والوَلَّة: ذهاب العقل من حزن، والحيرة والخوف. وفعله: استولّت.

ولم يكن عمله — على عِظَم قَنَرِه وجليل محتواه — مجردَ تأريخ لأسواق العرب في الجاهلية والإسلام، فحسب. ولذا نراه يحرص في كل مناسبة على التذكير والتنبية وإثارة الهمم والعزائم. وأكتفي من ذلك بمثال واحد، وذلك حين تحدث المرحوم الأفغاني عن أيام حروب الفجار، إذ ختم كلامه عليها بقوله:

"هكذا كانت تجارة العراق في عكاظ وما يفيد من يجبرها من أرباح مادية ومعنوية هو وقبيلته، سبباً مغرياً في هذه الحروب. وأي بدع في هذا؟ فإنا ما نزال إلى اليوم نرى أكثر الحروب في حقيقتها تطاحنا على النفوذ الاقتصادي. وتكاد أحداث القرن العشرين كلها تكون حول التنافس التجاري، إن لم يكن بصورة جليلة، فمن وراء الستار"⁽¹⁾.

✱ ✱

طبع كتاب "أسواق العرب غير مرة. وأولى طبعاته سنة 1355هـ / 1936م. وثانيها نشرت منقحة ومزيدة في 526 صفحة مع الفهارس وصدرت عن دار الفكر بدمشق سنة 1379هـ / 1960م. ثم ظهرت الطبعة الثالثة سنة 1413هـ / 1993م عن دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة. وأخيراً صدرت الطبعة الرابعة سنة 1416هـ / 1996م في الكويت قبل وفاة مؤلفه رحمه الله.

* * *

أهمّ مصادر البحث

- 1- أسواق العرب في الجاهلية والإسلام: سعيد الأفغاني - الطبعة الثالثة بالقاهرة 4/3هـ / 1993م.
- 2- بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: محمود شكري الألوسي (الطبعة المصورة). بيروت
- 3- تاج العروس: الزبيدي - طبعة الكويت.
- 4- القاموس الإسلامي: أحمد عطية الله - القاهرة. 383هـ / 1963م.

□ □ □

(1) أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، ص 180.